المبحث الأول

القصد

تعريف القصد : Intentionality

عرف (دي بوجراند) القصد بقوله : « هو يتضمن موقف منشئ النص في كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك والالتحام »[1] .

والصورة التي شكلت النص المقصود هي عنده « وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها »[2] .

وهذا التعريف للقصد يجعل منه دليلا على وجود نصٍّ مسبوكٍ ومحبوكٍ : غير أن (دي بوجراند) لا يرى عدم وجود السبك والحبك حائلا دون حصول القصد « حيث يظل القصد قائما من الناحية العملية حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للسبك والالتحام »[3] .

وبما أن اللغة نشاط تواصلي بين المنتج والمتلقى[4]؛ كان لمعيار القصد أهميته في تحقيق النصية ؛ لأنَّه « تعبير عن هدف النص »[5].

---

(١) النص والخطاب والإجراء : ١٠٣ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٣ .

(٣) المصدر نفسه : ١٠٣ .

(٤) يُنظَر : مدخل إلى علم النص : ٢٥ .

(٥) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات : ١٦٦ .

- القصد والدلالة :

ليس كل حدث لغوي أو غير لغوي ذو محتوى دلالي معين ، يدل على قصد ، ولاسيما تلك الأحداث المعزولة عن سياقها كـ(تراكم الغمام) و(احمرار وجنتي العذراء) عند (كرايس)[1] .

فتراكم الغمام يدل على أن السماء قد تمطر ، واحمرار وجنتي العذراء يدل على خجلها . وهذان الحدثان غير اللغويين هما حدثان منتزعان من سياقهما فهما بدلالتين عامتين ، « ولكن ليس وراءهما قصد »[2] .

ولو أدخل كل واحد منهما سياقا ما ؛ لظهر القصد من دلالتهما ، فيمكن القول في تراكم الغمام إن عامل البناء لو أخبر صاحب العمل بقوله : اليوم يتراكم الغمام في السماء ، لا شك في ظهور قصده أنَّه لا يريد الذهاب إلى موقع العمل للبناء .

كما أن في (احمرار وجنتي العذراء) ، لو أن خاطبًا تقدم لخطبة إحدى النساء . فرجع الخُطَّاب ، فأخبروه : أنَّه قد أحمرت وجنتا العذراء ، أليس قصدهم حصول الموافقة عليه . ويمكنني أن أظهر هذا في قول (عبد الله ابن الحُمَيِّر)[3] : [الطويل]

غَدَاةَ يَقُولُ القَيْنُ هَلْ أَنْتَ مُرْدِفِي ... وَمَا بَيْنَ ظَهْرِ القَيْنِ والرُّمْحِ إِصْبَعُ

فَقُلْتُ لَهُ يَا بْنَ المُرِيَّةِ إِنَّهَا ... بِرَبِ حَفِيْفٍ وَاحِدٍ هِيَ أَسْرَعُ

---

(١) يُنظَر : نحو النص : ٧٩-٨٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٩ .

(٣) الأشباه والنظائر للخالديين : ٣٠٤/٢ . الرِّيبةُ والرَّيبُ الشَّكُّ؛ ورَابَني أمرُه يَريبُني أي أدخل عليَّ شَرّاً وخَوْفاً . فالمُريبة ، الخائفة أو المتهمة . يُنظَر : لسان العرب : (ريب) ٤٤٢/١ .

فالحدث غير اللغوي في جملة (وما بين ظهر القين والرمح إصبع) يدل على قصد الشاعر ، وأنه لا يريد إرداف القين ، وقد جاء في البيت الثاني بتعليل يقتضي أنه قد أجابه بالرفض ؛ وهو قوله : (إنها برب خفيف واحد هي أسرع).

اعتراض على الدكتور أحمد عفيفي ودفعه عنه

ضرب الدكتور (أحمد عفيفي) قول لشاعر : [الرجز]

وَاهًا لِسَلْمَى ثُمَّ وَاهًا وَاهًا ... يَا لَيْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وَفَاهَا

مثلا على ما يفتقد القصد « إذا لم ينقل البيت معرفة ولم يحقق هدفًا ؛ لأنَّه ليس وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها ، فلم يحتوِ البيت على هدف وخطة لتحديد الهدف ، ولم يُقدم معرفة معينة فافتقد النصية وبالتالي خرج عن الدراسة النحوية النصية »[1] .

قد سبب ضرب المثال اعتراضًا عليه من قبل الدكتور (أحمد محمد عبد الراضي)، وهذا الاعتراض هو[2] .

١- إن الدكتور (أحمد عفيفي) لا يعد قول الشاعر نصًا ؛ لخلوه من القصدية ؛ في حين يعد كلام المكره والمخطئ والناسي والسكران نصًا .

٢- كيف يحكم على قول الشاعر بأنَّه في حكم اللغو ، إذ لم ينقل معرفة أو هدفًا ، ألا يريد الشاعر أن يوصل معنى معينا إلى المتلقي وأن يعبر عما في نفسه من حب ونحوه تجاه إنسان معين .

٣- « ثم إن الدكتور (أحمد عفيفي) لم ينقل نص الأبيات كما وردت في كتب اللغة منسوبة إلى رؤبة أو العجلي أو أبي الغول وهي :

وَاهًا لِسَلْمَى ثُمَّ وَاهًا وَاهًا ... هِيَ الْمُنَى لَوْ أَنَّنَا نِلْنَاهَا

يَا لَيْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وَفَاهَا ... بِثَمَنٍ نُرْضِي بِهِ أَبَاهَا

---

(١) نحو النص : ٨١ .

(٢) نحو النص بين الأصالة والحداثة : ٩٠-٩١ .

إنَّ أَبَاهَـــا وأَبَـــا أَبَاهَـــا قَـــدْ بلغَـــا فِي المَجْـــدِ غَايَتَاهَـــا

ثم يعرج فيقول : «ألم تحمل هذه الأبيات هدفًا معينًا يريد الشاعر توصيله إلى الناس ، فاستبعادنا هذه الأبيات عن دائرة النصوص يجعلنا نستبعد كل ما ورد عن العرب من قصائد غزلية رائعة ؛ صور فيها أصحابها مشاعرهم وعواطفهم «تجاه محبوباتهم»[1] . ومن الإنصاف الوقوف عند هذا الاعتراض ؛ لما تضمنه من إيهام :

١- كان الاعتراض الأول يوحي بأنَّ الدكتور (أحمد عفيفي) جعل البيت المذكور مثالا مقابلا لكلام الناسي والمخطئ والمكره والحقيقة ليست كذلك ، بل إن الدكتور ضرب هذا البيت مثالا لما يفتقد القصد ، فلا وجه لمقارنة قول الشاعر وعدم احتوائه على قصد بكلام المكره والناسي والمخطئ الذي قد يتضمن قصدًا .

وقد جاء مثال الدكتور (أحمد عفيفي) (بيت الشعر) توضيحا لقضية «تراكم الغمام واحمرار وجنتي العذراء» فهذان الحدثان لهما دلالة ، ولكن ليس وراءهما قصد»[2] ، فالدكتور يرى أن هناك فرقا بين الدلالة في (هدوء الليل) أو (نهر النيل) وبين نسبة هذه الدلالة إلى شيء ما قبل : لفَّنا هدوء الليل أوسرتنا رؤية نهر النيل»[3].

٢- نسب إلى الدكتور (أحمد عفيفي) أنَّه : «يحكم على قول الشاعر بأنَّه في حكم اللغو» ولم يتلفظ الدكتور بكلمة (لغو) في كلامه عن البيت الشعري .

والظاهر أنَّه تأويل من المعترض على كلام الدكتور (عفيفي) لتفسيره كلمة لغو بعبارة «إذ لم ينقل معرفة أو هدفًا»، والذي يدفع هذا عن الدكتور

---

(١) نحو النص بين الأصالة والحداثة : ٩١ .

(٢) نحو النص : ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٨٠ .

(عفيفي) رأيه الصريح باللغو ؛ إذ قال : إنَّه «ربما أدى لغو الكلام قصداً وحقق هدفًا لهذا يصعب الحكم عليه باللغو ؛ لأنَّه حقق معيارية القصد»[1].

٣- ليس من الإنصاف الاعتراض على مستشهد ما بغير ما استشهد به فالدكتور (أحمد عفيفي) استشهد ببيت واحد ، وسواء احتج به على أنَّه بيت مفرد أم أنَّه بيت منتزع من قصيدة ؛ فهو أمر لا يضرهما شاهدًا ومُستشهدًا ، ولاسيما عندما يكون الشاهد مطابقا لما استشهد به ، فعدم احتواء البيت على هدف وخطة لتحديد الهدف وعدم تقديمه معرفة معينة هذا على الحقيقة في البيت الذي استشهد به الدكتور عفيفي .

أما بعد أن يضم هذا البيت إلى أبيات القطعة ، فلا يشك بوضوح القصد فيه ، ثم يختم الدكتور (عبد الراضي) بكلام بَعُدَ فيه ، فبعد أن حاكم الدكتور (أحمد عفيفي) على شواهد لم يذكرها الأخير ، يقول : «فاستبعادنا هذه الأبيات عن دائرة النصوص يجعلنا نستبعد كل ما ورد عن العرب من قصائد غزلية رائعة ، صور فيها أصحابها مشاعرهم وعواطفهم تجاه محبوباتهم» هذا كلام لا وجه له في الاعتراض : فمن ذا الذي يستبعد مثلها .

إذ لا يتصور هذا من منتسب إلى اللغة العربية ، فكيف يُرمى به من هو متخصص فيها مثل الدكتور (أحمد عفيفي).

القصد : ونية المتكلم :

يقول الجاحظ : «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهره ، وكأن الله (عز وجل) قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله»[2] .

يرى الدكتور (تمام حسان) أنَّه «ليس من قبيل النص ما نسمعه من لغو الكلام وحشوه وكلام السكران والمكره والناسي والمخطئ ؛ ولذا جاء في

---

(١) نحو النص بين الأصالة والحداثة : ٨٠ .

(٢) البيان والتبيين : ٨٣/١ .

الحديث : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فإذا لم يتحقق القصد لم يتحقق النص بالمعنى الاصطلاحي»[1] .

وقد تعرض الدكتور (عفيفي) لرأيه باعتراض له فيه وجهة نظر «فالمكره ـ في رأيي ـ يقصد مقولته ، وكذا الناسي وكذا المخطئ ـ وقت حديثه ـ وربما أدى اللغو قصدًا وحقق هدفًا ، ولهذا صعب الحكم عليه باللغو ؛ لأنَّه حقق معيارية القصد»[2] .

والذي يظهر أن كلام الدكتور (تمام حسان) فيه مراعاة للمتكلم ، إذ الناسي والمكره والسكران والمخطئ على الحقيقة لم يقصدوا شيئا مما يتكلمون به ، وهذا هو مجال الحديث عن النية التي هي : «عزم القلب وتوجيهه وقصده إلى الشيء»[3] ، فكل واحد منهم ليس لقلبه حضور وعزم في كلامه .

لذا راعى الشرع قصد المكره في لفظه ـ وإن كان كفرًا ـ ، ولم يرتب بحقه عقوبة ولم يدخله في الحكم ، قال تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (النحل:١٠٦)[4] .

وكذلك المخطئ ؛ عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال ، قال رسول الله ﷺ لله أشد فرحًا بتوبة عبده ، حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ،

---

(١) نحو النص ونحو الجملة : ٢ ، نقلا عن نحو النص : ٨٠ .

(٢) نحو النص : ٨٠ .

(٣) تاج العروس : (نوي) ١٣٩/٤٠ .

(٤) الكشاف : ٤٧٥/٣ .

فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[1].

ففي قوله أخطأ من شدة الفرح مراعاة لقصده ونيته لا للفظه وإلا فقد تلفظ بالكفر الصريح .

وقد فرق (فان دايك) بين النوايا والمقاصد بقوله : «إننا يجب أن نفرق بين النوايا والمقاصد ؛ إذ إن المقصد ينسحب فقط على إنجاز عمل بعينه على حين تنسحب النية على الوظيفة التي يمكن أن تكون لهذا العمل أو هذا الحدث»[2].

أما كلام الدكتور (أحمد عفيفي) في كلام المكره والناسي والمخطئ ، من أن يكون فيه قصد ، وهذا القصد حاصل حين حديثهم ، وإن خالف نياتهم ففيه على الأقل مراعاة لجهة المتلقي .

فالتورية في العربية التي هي : «أن يذكر المتكلم لفظًا مفردًا له حقيقتان أو حقيقة ومجاز ؛ أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية ، ويريد المتكلم المعنى البعيد يوري عنه بالقريب ، فيوهم السامع أول وهلة أنّه يريد المعنى القريب وليس كذلك»[3] .

ففيها القصد الظاهر للمتلقي غير القصد المخفي الذي هو المطلوب من جهة المتكلم ؛ لذا جاء التحرز في أن القسم على نية المقسم له (المتلقي) لا نية

---

(١) صحيح مسلم ، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) تنشرف بخدمته والعناية به ، أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي ، دار طيبة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ط/١ ، ٢٠٠٦م : كتاب التوبة ، (باب الحض على التوبة والفرح بها)، ١٢٥٩-١٢٦٠ رقم الحديث : ٢٧٤٧ .

(٢) علم النص ، مدخل متداخل الإختصاصات : ١٢٣ .

(٣) الكليات : ٢٧٧ .

المقسم ، والتورية جائزة ما لم يقسم المموري فإن أقسم وقع في الكذب ولم تنفعه التورية [1].

نظرية الأفعال الكلامية :

إن الفيلسوف (جون . أوستين) أحد النقاد الأكثر نفوذا في جامعة اكسفورد (١٩١١-١٩٦٠م) ، وله الفضل على علماء اللغة وعلماء النفس وعلماء الأدب وعلماء بعض العلوم الأخرى ، نسبت إليه نظرية (الأفعال الكلامية) [2] .

وقد انتقد (جون لاينز) مصطلح (فعل الكلام) ، ووصفه بأنَّه غامض مرة ومضلل مرة أخرى . وأن مصطلح (فعل لغوي) يعتبر أفضل منه بكثير ، وعلى الرغم من هذا النقد للمصطلح نراه يسلم له ؛ لأنَّ مصطلح (فعل الكلام) يستخدم على نطاق واسع بالمعنى الذي أضفاه عليه أوستن [3] .

وبما أن مصطلح (فعل الكلام) أصبح من خلال استعماله لهذا الغرض مصطلحا سائدًا على غيره فلا حرج من استعماله ، وإن كان غيره (فعل لغوي) أدق استعمالا كما أنَّه لا اعتراض على استعمال الأخير مكانه حتى مع نسبته إلى (أوستن) على أنَّه صاحب النظرية فيه[4].

---

(١) يُنظَر : فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف : ابن حجر العسقلاني، رقَّم الكتاب : محمد فؤاد عبد الباقي ، قام بإخراجه : محب الدين الخطيب ، وتعليقات : عبد العزيز ابن عبد الله بن باز ، دار المعرفة ـ بيروت ، ١٣٧٩هـ : (باب النية في الأيمان) ٥٧٢/١١ .

(٢) يُنظَر : اللغة والمعنى والسياق : ١٨٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١٨٩ .

(٤) استعمل ما ري نور غاري بريور . مصطلح (أفعال اللغة) مع نسبة هذه النظرية إلى اوستن يُنظَر : المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ، ماري نوال غاري بريور : ترجمة عبد القادر فهمي الشيباني ، سيدي بلعباس ـ الجزائر ، ط/١ ، ٢٠٠٧م : ١١ ، ما دعاني إلى ما ذكرته أعلاه .

تعريف الأفعال الكلامية :

إن هذا المصطلح على الرغم من أنّه مضلل عند جون لاينز ؛ فقد قَدَّم له بأنّه « يراد به أن يشمل إنتاج كل من لغة الكتابة ولغة الكلام شأنه في هذا شأن الوحدة الكلامية من ناحية والنقش أو النص من ناحية أخرى»[1] .

وبما أن (أوستن) لم يقدم بحسب (جون لاينز) أية نظرية متكاملة لأفعال الكلام ، وكل محاضرات (أوستن) منذ سنة أربعين وتسع مائة بعد الألف إلى وفاته (١٩٦٠م) كانت بحوثًا متصلة بالموضوع ، غير أنّه لم يترك لهذه المحاضرات مخطوطًا واضحًا ، ولاسيما التي ألقاها في هارفرد ؛ لذلك لم يجد (جون لاينز) غرابة في عدم وضوح صيغة محددة متفق عليها لنظرية أفعال الكلام ، بل ليس واضحًا عنده أن (أوستن) حاول فعلا أن يجعل من أفعال الكلام (نظرية) بما للمصطلح من مفهوم[2] .

ويعرف بهذا المصطلح (ماري نوال غاري) بقوله : « تنحو نظرية أفعال اللغة إلى تحديد قسم من الأفعال الأدائية التي تسمح عبر هذه الخصوصية بإنجاز الفعل الذي تشير إليه ، وذلك إذا ما صيغت في الحاضر على ضمير المتكلم »[3].

ولعل الفائدة المرجوة من أفعال الكلام أنّه « يقود فحص اللغة في هذه الزاوية إلى تحقيق منجزات مهمة في الدلاليات والتداوليات على حد سواء »[4].

وعرفه (أ . أ . ليونتيف) بقوله : هو فعل تضمين نشاط لغوي في نظام أوسع للأنشطة بوصفه أحد المكونات الضرورية والمشروطة بصورة متبادلة لهذه الأخيرة »[5]

---

(١) اللغة والمعنى والسياق : ١٨٩ .

(٢) يُنظَر : المصدر نفسه : ١٩٠-١٩١ .

(٣) المصطلحات المفاتيح في اللسانيات : ١٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣ .

(٥) إسهامات أساسية ، (بعض مفاهيم أساسية لنظرية لغوية للنص) : ١٩ .

ويُعرِّف (فان دايك) الأفعال الكلامية بأنَّها أحداث ، ويفسرها بقوله : «نحن نعمل شيئا ، ننتج تحديد سلسلة من الأصوات أو الحروف التي لها ـ بوصفها ـ منطوقات لغة معينة ـ شكل عرفي يمكن معرفته»[1].

وبما أن الأفعال الكلامية تحلل من خلال البراجماتية «بوصفها علما بتحليل الأفعال الكلامية ووظائف منطوقات لغوية وسماتها في عمليات الاتصال بوجه عام»[2].

فاللغة من خلال البراجماتية «ليس إبراز منطوق لغوي ما فقط بل إنجاز حدث اجتماعي معين أيضًا في الوقت نفسه»[3].

أقسام الأفعال الكلامية :

قسم (جون اوستين) الأفعال الكلامية إلى ثلاثة أقسام[4] :

أولا : الفعل التعبيري (locution act) أو الفعل القولي/ المادي/ الفيزيائي لإنتاج التلفظ .

ثانيا : الفعل الإنجازي (illocution act) ، يعني المعنى المقصدي لمنطوق ما ، أو الفعل الذي يتحقق من خلال إنتاج التلفظ ، كالوعد والتهديد . . . إلخ .

كما أن الاجتماعي (Jurgen Habermas)[5] قسم الفعل الإنجازي إلى خبري وتعبيري وطلبي .

---

(١) علم النص مدخل متداخل الإختصاصات : ١٣٠ .

(٢) علم النص مدخل متداخل الإختصاصات : ١١٤ .

(٣) المصدر نفسه : ١١٨ .

(٤) يُنظَر : علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٢٩ ، وقد ترجمت مؤلفته الاسم إلى (جون أوستين) وترجمه الدكتور : عباس صادق الوهاب إلى (جي أل أوستن) يُنظَر : اللغة والمعني والسياق : ١٨٨ ، ١٨٩ ، وترجمة عبد القادر الشيباني (جون . ل . أوستن) المصطلحات المفاتيح في اللسانيات : ١١ .

(٥) علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٢٩ .

ثالثا : الفعل الاستلزامي : (Per locution act) ، يعني إنتاج الأثر من خلال الفعل الفيزيائي والفعل الإنجازي فالسامع ينجز حدثا أيضًا .

وبهذا فالأفعال الكلامية : يمكن أن توصف بأنَّها مضامين الكلام ، فجملة (يطول على الليل) من قول عُطَارِدُ بنُ قُرَّان [1] : [الطويل] .

يَطُـوْلُ عَلَـيَّ اللَّيْـلُ حَتَّـى أَمَلَّـهُ فَأَجْلِسُ وَالنَّهْـدِيُّ عِنْـدِيَ جَـالِسُ

هي ليست جملة سليمة الصياغة فقط ، بل بَثُّ لمضمون (الشكوى) فهو بهذا أنجز حدثًا من خلال النطق بهذه الجملة[2] .

القصد والأفعال الكلامية

يكون إنجاز الأفعال الكلامية مصاحبًا للقصد ؛ « لأنَّنا في العادة لا نتحدث ضد إرادتنا ، ويمكن أن نتحكم أيضًا في لغتنا »[3] .

وبما أن القصد مرتبط بالمتكلم في عملية التواصل بينه وبين المتلقي كان للأفعال الكلامية غاية الأهمية لبيان القصد . والأفعال الكلامية تنقسم إلى صريحة وغير صريحة ، وعلاقتهما بالقصد علاقة طردية .

وتكون الأفعال الكلامية صريحة : « إذا كانت وسائل الإشارة إلى الفعل الإنجازي موجودة يقال إن التلفظ له فعل إنجازي صريح أو مباشر »[4] . وأما غير الصريحة فهي في حالة كون وسائل الإشارة إلى الفعل الإنجازي غير صريحة [5] .

---

(١) أشعاراللصوص وأخبارهم : ١١٧ ، وفيه : (الفهري) بدل (النهدي) ، ديوان اللصوص : ١٨/٢ . وَفَرَسٌ نَهْد : جَسِيمٌ مُشْرِفٌ النهْدُ : الْفَرَسُ الضخْمُ القويُّ ، يُنظَر : لسان العرب : (نهد) ٤٢٩/٣ .

(٢) يُنظَر : علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ١١٨-١١٩ .

(٣) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ١٣٠ .

(٤) علم لغة النص النظرية والتطبيق : ٣٠ .

(٥) يُنظَر : المصدر نفسه : ٣٠ .

فوجود الأفعال الكلامية الصريحة يساعد المتلقي على تحديد القصد الذي عَنَاه المتكلم « فإن الفعل الكلامي يصيب حين نعبر(*) في تساوق مع قصودنا معارف السامع ؛ أي : أن يعرف أننا نتحدث ونتطق هذا النص ، ونعبر من خلال ذلك عن معنى معين ونحيل إلى شيء ما »(١) ، وهذا ما مدح الجاحظ به الكلام بقوله : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه ... »(٢) .

ومثال ما جاء فيه صريح الأفعال الكلامية من شعر الصعاليك قول القتال الكلابي : (٣) [الطويل]

وَرِثْنَا أَبَانَا حُمْرَةَ اللَّوْنِ عَامِرًا وَلا لَونَ أَدْنَى لِلهِجَانِ مِنَ الحُمْرِ

في هذا البيت (الشطر الأول منه) قصدان واضحان من خلال أفعال الكلام فـ(ورثنا أبانا حمرة اللون) ، فالموروث من الأب (حمرة اللون) إذ بذكرها ظهر قصده جليًا إذ الموروث بغير تحديد قد يكون مالا ، كما أن تحديد اللون أنهى القصود التي قد ترد في ذهن المستمع بخلاف لو أنَّه قال : ورثنا أبانا اللون .

كما أن فيه (عامراً) عطف البيان على (أبانا) وهو أبو جد الشاعر ، فبهذا التحديد جاء القصد صريحًا لا ينازع فيه أحد ولو تركه ، لكان اللفظ (أبانا) يذهب على الأب على الحقيقة وإن احتمل أن يكون المراد به الجد .

(*) وضعت كلمة (نعبر) وهي في الأصل (تغير) والظاهر أنه خطأ طباعي ، إذ لا مناسبة لها في هذا الموضع .

(١) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ١٣١ .

(٢) البيان والتبيين : ٨٣/١ .

(٣) ديوان القتال الكلابي : ٦٤ . الهجان : أولاد العرب من الأعَجمِيَّاتِ اللاَّتِي يَغلِبُ عَلَى أَلوانهن البَيَاضُ : هُجَنٌ وهُجَناء ، لِغَلَبَةِ الْبَيَاضِ على أَلوان أُمهاتهم ، والهِجانُ مِنَ الإِبل : البيضُ الْكِرَامُ . يُنظَر : لسان العرب : (هجن) ٤٣١/١٣ .

ومن هذين الفعلين الكلاميين الصريحين جاء القصد الأساس الذي أراده الشاعر ، وهو أني معروف النسب حرٌّ غير عبد أو ابن أَمَة .

وهذا ما تردد على لسانه في كثير من شعره منه قوله [1] : [الطويل]

لَقَـــدْ وَلَـــدَتْنِي حُـــرَّةٌ رَبَعِيَّـــةٌ مِن اللاءِ لَمْ يُحْضِرْنَ فِي القَيْظِ دِلْـــدِنَا

وقوله[2] : [البسيط]

أَنَا ابْنُ أَسْمَاءَ أَعْمَـــامِي لَهَـــا وَأَبِـــي إِذَا تَرَامَـــى بَنُـــو الإِمْـــوَانِ بِالعَـــارِ

أما القصد في الأفعال الكلامية غير الصريحة فيكون به بعض الغموض ، وإن كان من الناحية الاجتماعية يعد « أكثر تأدبًا من الأفعال الكلامية الصريحة وذلك ؛ لأنَّها تمنح المخاطبين اختيارات في كيفية تفسير التلفظ »[3]

والحقيقة أن مراعاة الجانب الاجتماعي هنا كان على حساب المتلقي ، فيظهر أن تكليف المتلقي بتخمين مقاصد المتكلم [4] يدخل النص في فضاءات التأويل ، كما أن غير الصريح من الأفعال الكلامية يكون المتلقون لها على أصناف بحسب معرفتهم بالقواعد العرفية التي نص عليها (فان دايك) ، بقوله : « من البدهي أننا لدينا حين ننطق شيئا ما في أغلب الأحوال أيضًا قصد ، وهو أن يفسر أولئك الذين قد سمعونا أو يستطيعون القراءة ، هذا العمل على أنَّه فعل كلامي بناء على القواعد العرفية ذاتها »[5] .

ودليل هذا أحد وجهي الإعراب في قوله تعالى : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ (آل عمران:٧) ، أن الواو عطف فيكون الراسخون في العلم يعلمون تأويل

---

(١) ديوان القتال الكلابي : ٩٣ . والدِّنْدِن ، بالكسر : ما بلي واسودَّ من النَّباتِ والشجر . لسان العرب : (دنن) ١٣/١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٥٤ ويُنظَر من هذا المعنى : ٣٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ .

(٣) علم لغة النص النظرية والتطبيق : ٣٠ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٣٠ .

(٥) علم النص مدخل متداخل الإختصاصات : ١٣١ .

ما تشابه من القرآن [1]، والشاهد أنَّه في الآية تصنيف المتلقين للأفعال الكلامية غير الصريحة (ما تشابه منه) ، وهم أهل العلم فهم راسخون وغير راسخين في العلم ، فضلا عن أن من المتلقين مَن هو من غير العالِمين .

ومما جاء في شعر الصعاليك من أفعال كلامية غير صريحة قول تليد الضبي : [2] [الطويل] .

وَلَوْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَفْقِدُ أُمَّهُ لَقِيْلَ احْتَوَاهَا فِي الرِّحَالِ تَلِيْدُ

فاحتواها في الرحال قصده سرقها ، غير أن الأفعال الكلامية في هذا البيت غير صريحة في الدلالة على ما قصده ؛ فالفقدان ليس مقتصرا على السرقة ، كما أن الاحتواء قد يدل على أنَّه حملها على الرحال مساعدة لها ، بعد أن أضلت الطريق على سبيل المثال .

غير أن (يفقد أمه) و(احتواها) يدلان بالمعرفة العرفية على لصوصية تليد .

« فالمتلقي (السامع ، القارىء) يجب أن يكون قادراً أساسًا على فهم المتعلق المقصود في المتكلم/ الكاتب »[3].

الامتداد العربي لنظرية الأفعال الكلامية :

ليست العملية محض محاولات يجتهد فيها الباحثون المعاصرون من العرب لينسبوا إليهم كل ما وفد إلى لغتهم من مفاهيم ونظريات توصّل إليها علماء اللغات الأخرى ، بل هو متعلق بتراث لغوي عظيم النتاج سبق إلى كشف حقائق عن التواصل اللغوي ، فلم يستثن طرفًا من أطراف هذا التواصل (منتجًا أو متلقيًا أو وسيلة) إلا له فيه آراء تصلح لتكون له إشارات ، إذا ما وقف عندها الباحثون المعاصرون لم يكن من المنصف منهم إلا الإجلال ، فيُظهر أن

---

(١) يُنظَر : الكشاف : ٥٢٩/١ ، البحر المحيط : ٤٠٠/٢ .

(٢) ديوان اللصوص : ١٤١/١ .

(٣) إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو الدلالة ، (بعض مفاهيم أساسية لنظرية لغوية للنص) : ٣٢ .

العرب قد سبقوا ولا يضرهم إن لم تتفق التسميات مع تسمياتهم ؛ لأنَّ العبرة بالحقائق لا بالألفاظ .

فأفعال الكلام سابقة الذكر لم يغب معناها عن اللغويين العرب ؛ فنجد البلاغيين تكلموا عن المعاني المستفادة من الألفاظ ، وهي قسمان المعنى ومعنى المعنى ، يقول (عبد القاهر الجرجاني) : « تقول : المعنى ومعنى المعنى وتعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة و(معنى المعنى) أن تعقل في اللفظ معنى ثم يفضي بك ذاك المعنى إلى معنى آخر »[1] .

و(عبد القاهر) يفسر معنى المعنى ويحدد وسائله في البلاغة بقوله : « وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الكناية ، والاستعارة والتمثل[2] .

فليس المراد من معنى المعنى إلا المضمون الذي يدل عليه اللفظ بدلالة لوازم أخرى ، أو قد لا يدل عليه مباشرة ، وهو من هذا الوجه يمكن أن يصدق عليه ما اصطلح عليه المحدثون (أفعال الكلام) بقسميها الصريح وغير الصريح .

وقد أورد (عبد القاهر الجرجاني) في كلامه عن معنى المعنى ما يمكن أن أطلق عليه وسائل معنى المعنى ؛ وهي عنده الكناية والاستعارة والتمثيل ، وهي على ما ذكر في قوتها لإظهار معنى المعنى .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٦٣ .

(٢) يُنظَر : دلائل الإعجاز : ٢٦٢ .

ولعل أقرب ما يمكن مقارنته بالأفعال الكلامية من التراث العربي ما جاء في مباحث البلاغة من كلام عن الكناية ، فهي قد استوعبت جانبًا مهمًا وكبيرًا من قضاياها في الدراسات النصية[1].

وقد عرفها (السكاكي) بأنَّها «ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك ؛ كما تقول : فلان طويل النجاد ؛ لينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة . . .»[2] وعرفها (القزويني) بأنَّها : «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه»[3].

وقد كان (للسكاكي) وعي تام بالوسائل التي تدل على الأفعال الكلامية من خلال ما ذكره من وسائل معرفة الكناية بقوله : «ثم إن الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك»[4].

فالسكاكي وإن لم يُجرِ على لسانه مصطلح (الأفعال الكلامية) غير أنَّه السابق الفعلي لعلماء النص ، ويظهر هنا عند الرجوع إلى (فان دايك) ، في كلامه عن البراجماتية والسياق ؛ فقوله : «البراجماتية تعالج قيود صلاحية منطوقات لغوية (أو أفعال كلامية) وقواعدها بالنسبة لسياق معين ، وبعبارة أكثر إيجازا تدرس البراجماتية العلاقات بين النص والسياق»[5] ، فكلام السكاكي سابق بزمن طويل كلام (فان دايك).

---

(١) يقول عبد القاهر الجرجاني : في تعريف الكناية «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه ويجعله دليلا عليه» دلائل الإعجاز : ٦٦ .

(٢) مفتاح العلوم : ٥١٢ .

(٣) التلخيص : ٣٣٧ .

(٤) مفتاح العلوم : ٥١٣ .

(٥) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ١١٦ .

القصد وفهم المخاطب :

تأكيدًا لأهمية المتلقي في تحديد القصد ، المتمثلة بأنَّه أحد طرفي عملية الاتصال ، وأنَّه المستهدف من أي خطاب ينتجه المتكلم كان لا بد من مراعاة فهم هذا المخاطب ، فهذا (فان دايك) قد أوجب مراعاة ما يهتم به شريك المحادثة بقوله : « فحين أعد شخصًا ما بشيء فإنني يجب أن ألتزم أساسًا بوعدي ، ويتطلب ذلك أيضًا أنني عند نطقي بوعدي أعلم أو لدي سبب لافتراض أني سأكون قادرًا على الوفاء بوعدي ، ويجب أن أعرف أيضًا أن لشريكي في المحادثة اهتمامًا معينا بالحدث الذي أوشك أن أعد به »[1].

فالأولى مراعاة فهم المخاطب ؛ فكلما كان المخاطب محدود الفهم ازدادت الحاجة إلى التصريح بالأفعال الكلامية ليتجلى المقصود من الكلام ، حتى يكون الكلام مستغنيًا عن المفسرات .

وقد راعى الخطاب الشرعي هذه القضية أيما مراعاة ، لتعلقه بالإيمان والكفر والثواب والعقاب ، فقد « قال علي (رضي الله عنه) : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله »[2].

وقد عبر (فان دايك) عن فهم المخاطب من خلال فهم قواعد عرفية تسرى على جماعة الاتصال كلها[3]، وهذه القواعد العرفية برأيه يجب أن يكون المخاطب يعرفها ، والهدف هو محاكاتها عند كلامه ، يقول : « يجب أن يعرف شخص ما ذو ثقافة معينة أو له قدرة ذاكرة معينة القيود والقواعد ذاتها ، وأن يطبقها تطبيقًا دقيقًا ، حيث ينتج منطوقات أو مفهومات مثل أي

---

(١) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ١١٩ .

(٢) يُنظَر : صحيح البخاري : للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) مؤسسة زاد ، القاهرة ، ط/١ ، ٢٠١٢م ، كتاب العلم ، باب (من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا) : ٣٠ .

(٣) يُنظَر : علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ١١٧ .

شخص آخر ، فإذا لم تكن الحال كذلك فإن المنطوق يرد على أنَّه غير ملائم أو غير مناسب حيث يبطل التفاعل »[1].

أولى (فان دايك) أهمية لمحاكاة إنتاج منطوقات ومفاهيم سابقة حتى عند معرفة القيود والقواعد التي تنتمي إلى مجموعة لغوية معينة ، وهذا المفهوم ليس هو ما أريد أن أسلط الضوء عليه بل أريد تسليط الضوء على ما يحدث لعملية التواصل حال كون شخص ما يخل في تطبيق القواعد تطبيقًا دقيقًا عند إرادته إنتاج منطوقات ومفهومات للتواصل ، وهو ما ختم به كلامه في الفقرة السابقة .

فإنه جعل من عدم ملاءمة المنطوقات أو مناسبتها سببًا لبطلان عملية التفاعل ، مما يجعل المتلقي الحَكَم على الكلام من خلال فهمه له أو عدم فهمه له ، فهو الذي له السلطة على قصدية النص باعتبار فهمه له .

أما إن كان المخاطب دقيق الفهم مرهف الحس ، فالتلميح بحقه أولى من التصريح ؛ لهذا « أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح »[2] .

وقضية فهم المخاطب توجب الحديث بطبيعتها عن العوامل الزمنية والاجتماعية والثقافية لكل مجموعة أفعال ، فبالضرورة يكون لكل زمن أفهام ومعارف تختلف عن زمن آخر ، كما أن لكل مجتمع أعرافا متداولة تؤثر على دقة الفهم ، وتكون الثقافة العامة أو الخاصة ضمن زمان ما ومجتمع ما لهما التأثير على فهم المخاطب [3] . ويمكن إيضاح ما تقدم بما يقول (جحدر العكلي)[4] : [الوافر]

---

(١) يُنظَر : علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ١١٧ .

(٢) التلخيص : ٣٤٦ .

(٣) يُنظَر : إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة : (في البنية الدلالية للنص : ديترفيهفجر) : ٢٦٥ .

(٤) شعراء أمويون : ١/١٨٥-١٨٦ .

فَيا أَخَوَيَّ مِنْ جُشَمٍ بنِ سَعْدٍ أَقِلاَّ اللَّوْمَ إِنْ لَمْ تَنْفَعَانِي
إِذَا جَاوَزْتُمَا سَعَفَاتِ حَجْرٍ وَأَوْدِيَةَ اليَمَامَةِ فَالْعِيَانِي
إِلَى قَوْمٍ إِذَا سَمِعُوا بِنَعْيِي بَكَى شُبَّانُهُمْ وَبَكَى الغَوَانِي
وَقُولا جَحْدَرٌ أَمْسَى رَهِينًا يُحَاذِرُ وَقْعَ مَصْقُولٍ يَمَانِي
يُحَاذِرُ صَوْلَةَ الحَجَّاجِ ظُلْمًا وَمَا الحَجَّاجُ ظَلاَّمٌ لِجَانِ

يحمل هذا النص أسماء لها ميزتها المكانية والزمانية فـ(سعفات حجر ، واليمامة ، والحجاج) لها دلالاتها ، فالمخاطب بها والمتلقي لها ، عندما يتلقى مثل هذه الأسماء من المنطقي أن يتأثر فهمه ؛ لينعكس على ظهور قصد المتكلم أو عدمه .

وضوح القصد في (الكناية والاستعارة والتشبيه) :

الكناية :

تنقسم الكناية إلى ثلاثة أقسام هي[1] : طلب نفس الموصوف ، وطلب نفس الصفة ، وتخصيص الصفة بالموصوف .

هذا التقسيم مبناه على القصد ؛ ففي القسم الأول تكون وسيلة إلى معرفة أن قصد المتكلم (المُكَني) متجه نحو الموصوف ، والقسم الثاني تدل أفعال الكلام فيه إلى أن القصد من المكني يتجه نحو الوصف ، ثم يأتي القسم الثالث ، لتدل الأفعال الكلامية فيه على أن القصد من المتكلم ينص على العلاقة بين الموصوف وصفته وتخصيص هذا الموصوف بهذه الصفة .

ودليل هذا ما حد (السكاكي) الكناية البعيدة به ، فقال : « وهي أن تتكلف اختصاصها ؛ بأن تضم إلى لازم آخر وآخر فتلفّق مجموعًا وصفيًا مانعًا عن دخول كل ما عدا مقصودك فيه ، مثل أن تقول في الكناية عن الإنسان : حي مستوي القامة عريض الأظفار »[2].

---

(١) يُنظَر : مفتاح العلوم : ٥١٣ .

(٢) مفتاح العلوم : ٥١٤ .

فكلامه دال على أن القصد محدد ، والأفعال الكلامية (اللوازم) هنا قد أخرجت كل قصد غير القصد المطلوب .

ومنها قول الخطيم المحرزي [1] : [الطويل]

وإن تلـــقَ نـــدْماني يُخبّـــرك أنّـــني ضعيفُ وكاءِ الكيس لم أُغذَ بـــالفَقْر

فضعيف وكاء الكيس كناية عن كرمه ، وفيها ظهور لقصده ، وتخليص الصفة لذاته .

الاستعارة :

هي : نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول إليه .[2] وهي « أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنَّه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية »[3]. وتقسم الاستعارة إلى قسمين : [4]

الأولى : الاستعارة المفيدة . الثانية : الاستعارة غير المفيدة .

الفائدة هنا هي : المعنى الجديد أو المعنى المضاف على الأصل ، يقول عبد القاهر الجرجاني في كلامه عن غير المفيدة : « استعمل الشفة في الفرس وهي موضوعة للإنسان فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو لزمت الأصلي لم يحصل لك »[5].

---

(١) شعراء أمويون : ٢٥٦/١ .

(٢) يُنظَر : المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير ، ويليه كتاب الفلك الدائر على المثل السائر ، لابن أبي الحديد ، قدمه وعلق عليه ، الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ـ مصر ، ط/٢، د . ت : ٨٣/٢ .

(٣) أسرار البلاغة : ٣٠ .

(٤) يُنظَر : المصدر نفسه : ٣٠-٣٣ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٢ ، وقد تقسم على غير هذا التقسيم ، كالمصرح بها والمكنى عنها عند السكاكي ، يُنظَر : مفتاح العلوم : ٤٨٢ .

الاستعارة المفيدة :

يقول (عبد القاهر الجرجاني) : « وأما (المفيد) فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض ، لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك »[1].

مثال هذه الاستعارة عند البلاغيين قولك : رأيت أسدا تقصد : رأيت رجلاً شجاعًا . فاستعارة الأسد مكان (رجلاً شجاعًا) ؛ وهو المقصود من الكلام ، فالأسد يمثل هنا فعلاً كلاميًا ينم عن المقصود الحقيقي .

والذي دفعني إلى جعل الاستعارة في مرتبة أقل من التشبيه ، والكناية في ظهور القصد وعدمه أن الفائدة فيها مبنية على التشبيه[2]، والتشبيه يكون في لفظه دلالة على قصده .

فرأيت أسدًا هو في الأصل رأيت رجلاً مثل الأسد في الشجاعة ، فحذف المشبه وأداة التشبيه ووجه الشبه ، ليكون : رأيت أسدًا فالفائدة هنا والمبالغة في وصف المقصود بالشجاعة[3] ، وقد ورد في قول جحدر العكلي[4] : [البسيط] .

يَا أَقْرَبَ النَّاسِ مِنْ حَمْدٍ وَمَكْرُمَةٍ وَأَبْعَدَ النَّاسِ مِنْ ذَمٍّ وَمِنْ عَارِ
وَأَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مَقْدِرَةٍ وَلَيْثَ غَابٍ عَلَى أَعْدَائِهِ ضَارِ

يذكر الشاعر من صفات ممدوحه أنَّه أقرب الناس للمحامد والمكارم وأبعدهم من المذام والعار ، هو عظيم العفو عند المقدرة ، فهو شجاع بالغ الشجاعة فاستعار الليث لذكر عظيم شجاعته عند لقاء الأعداء .

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٢-٣٣ .
(٢) يُنظَر : المصدر نفسه : ٣٣ ، ٥٥ .
(٣) يُنظَر : المصدر نفسه : ٣٣ .
(٤) شعراء أمويون : ١/١٧٦-١٧٧ .

الاستعارة غير المفيدة :

يكون هذا النوع من الاستعارة « حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة ، والتنوُّق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو : وضع (الشفة) للإنسان و(المشفر) للبعير و(الجحفلة) للفرس ، فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله »[1] .

ويرى (عبد القاهر الجرجاني) أن هذا النوع منها « لا يفيدك شيئًا لو لزمت الأصلي لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه وقوله : من جحفلتين ، لو قاله . إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب »[2].

بل إنه يرى أن هذا النوع أشبه بأن تنقص المعنى من جهة أن الاستعارة تزيل الاختصاص عن الأسماء فيدخل السامع بعض الشبهة في تحديد القصد من ذكره ، ومثاله فيه (الشفة) أنَّها لو ذكرت في سياق ورد فيه الإنسان والفرس ، كان التردد في أنَّها على أصلها للإنسان أو أنَّها استعيرت للفرس[3].

ورأيه في هذا النوع ليس على إطلاقه ، من جهة عدم الإفادة ؛ لأنَّه قد استثنى نوعًا « يخلط بالضرب الأول الذي هو استعارة من طريق اللفظ ويُعد من قبيله ، وهو إذا حققت ـ ناظرٌ إلى الضرب الآخر الذي هو مستعار من جهة المعنى وجار في سبيله ؛ فمن ذلك قولهم : إنه لغليظ الجَحافل وغليظ المشافر ؛ وذلك أنَّه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم ، فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته في الغِلَظ مِشفَر بعير وجَحفلة الفرس »[4].

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٢ .

(٣) يُنظَر : أسرار البلاغة : ٣٢ .

(٤) أسرار البلاغة : ٣٦ .

وهذا المعنى الذي وقف عنده (عبد القاهر) هو ما استدعى أن تضم الاستعارة غير المفيدة [1] إلى وسائل الأفعال الكلامية العربية ؛ إذ هي تفصح عن قصد المتكلم كما في إرادة الذم في ما ضربه من غليظ المشافر وغليظ الجحافل .

وقد أكد هذا الرأي في غير ما موضع عند كلامه عن الاستعارة [2] ، منها قوله : « وكذا قوله »[3] [المنسرح] .

وذاتِ هِـــدْمٍ عَـــارٍ نَواشِـــرُها تُصْـــمِتُ بالمـــاءِ تَوْلَبًـــا جَـــدِعَا

فأجرى التولب على ولد المرأة وهو ولد الحمار في الأصل ؛ وذلك لأنّه يصف حال ضر وبؤس ، ويذكر امرأة بائسة فقيرة ، والعادة في مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم ليكون أبلغ في سوء الحال وشدة الاختلال »[4]. ويجرى هذا الكلام على ما جاء في قول القتال الكلابي : [5] [البسيط]

---

(١) هنا يمكن تسجيل الملاحظة على وصف هذا النوع بأنه غير مفيد؛ لأنه قد ثبتت أفادته هنا واستعماله بهذا القيد كان على سبيل التجوز ، ومتابعة الإمام عبد القاهر الجرجاني .

(٢) أسرار البلاغة : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) ديوان أوس بن حجر ، تحقيق وشرح : الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر ـ بيروت ، ط/٣ ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م : ٥٥ . والهِدْمُ : الخَلَقُ البالي . العين : (هدم) ٢٩٨/٤ . النَّاشِرة واحِدَةُ النَّواشِر ، وهي عُرُوقٌ باطِنِ الذِّراع . لسان العرب : (نشر) ٢٠٩/٥. والتَولَب : ولدُ الأتان من الوحش إذا استكمَلَ الحولَ . وقد يُستَعار للإنسان . لسان العرب : (تلب) ٢٣٢/١ . وجَدِعَ الغلامُ يَجْدَعُ جَدَعا ، فهو جَدِعٌ : ساءَ غِذاؤه . لسان العرب : (جدع) ٤٢/٨ .

(٤) أسرار البلاغة : ٣٩ .

(٥) ديوان القتال الكلابي : ٥٧ . والزَّنْدُ والزَّنْدَةُ : خَشَبَتَانِ يُستَقْدَحُ بهما ، فالسُّفلَى زَنْدَةٌ والأعلى زَنْدٌ؛ وإنه لَوَارِي الزَّنْدِ ووَرِيُّه : يكون ذلك في الكرَم وغيرِه من الخِصال المحمودَةِ وماده في البيت عن رَحِمِهَا وإنما هو على المثل . ينظر : لسان العرب : (زند) ١٩٥/٣-١٩٦ . المَشَابِر حُزوزٌ في الذِّراعِ التي يُتَبَايَعُ بها ، منها حَزُّ الشِّبْر وحَزُّ نِصْفِ الشِّبرِ وربعِه ، كلُّ جزءٍ منها صَغُر أو كَبُرَ مَشْبَرٌ . لسان العرب : (شبر) ٣٩٣/٤ .

يَا قَبَّحَ اللهُ صِبْيَانًا تَجِيءُ بِهِمْ أُمُّ الهُنَيْبِرِ مِنْ زَنْدٍ لَهَا وَارِي
مِنْ كُلِّ أَعْلَمَ مُنْشَقٍّ مَشَافِرُهُ وَمُؤْدَنٍ مَا وَفَى شِبْرًا بِمِشْبَارِ

فالمشافر جمع مشفر وهي للبعير بمنزلة الشفة للإنسان[1] . ووجهه هنا مبالغة في الذم ، وهو تشبيه للمذمومين بالبهائم في سلسلة تبدأ بأمهم (أم الهنبير) الضبع [2]، ثم استعارة المشافر لأولادها من البعير . وللقتال الكلابي استعارة أخرى من هذا النوع جاءت في قول [3] : [الوافر]

وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ بَنِي حُصَيْنٍ بِهِمْ جَنَفٌ إلى الجاراتِ بَادِ
خَلَعْتُ عِذَارَهَا وَلَهِيْتُ عَنْهَا كَمَا خُلِعَ العِذَارُ مِنَ الجَوَادِ

استعار لزوجته التي طلقها عذار الفرس : وهو السَّيْر على خدِّ الفرس وفي اللجام عِذاران من يمين الخدِّ وشماله [4] .

والمثال يصلح للاستعارة المفيدة ، فاستعاره لزوجته وهو الأداة التي يحكم بها الفرس كحكم الرجل المرأة بعقد النكاح ، وخلعه هو الطلاق .

التشبيه :

هو « الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى »[5]، والذي استدعى أن يكون هذا النوع من البيان مقابلاً للأفعال الكلامية عند النصيين ، هو أنَّه « مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فنِّ البلاغة وأن تعقيب المعاني به ، ولا سيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحًا أو ذمًا أو افتخارًا أو غير ذلك »[6].

---

(١) الصحاح : (شفر) ٧٠١/٢ ، تاج العروس : (شفر) ٢٠٩/١٢ .
(٢) العين : (هنبر) ٣٢٥/٤-٣٢٦ .
(٣) ديوان القتال الكلابي : ٤٧ .
(٤) صفة السرج واللجام ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت٣٢١ هـ) حققه واستدرك عليه : الدكتور مناف مهدي محمد ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٩٢م : ٧٢ .
(٥) التلخيص : ٢٣٨
(٦) والإيضاح في علوم البلاغة : ٢٣٣ .

وقد استعمل (القزويني) أفعال الكلام للاستدلال على فضل التشبيه على غيره في تحريك النفس وتمكين المعنى ؛ إذ يقول : «ومن الدليل على أن للتشبيه من التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره ، أنَّه لو كان الرجل مثلاً على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنَّه لا يحصل من سعيه على شيء فأدخل يده في الماء ؛ وقال : انظر هل حصل في كفي من الماء شيء ، فكذلك أنت في أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول المجرد»[1] .

وقد قسم (عبد القاهر الجرجاني) التشبيه إلى قسمين من جهة التأوُّل أحدهما : «أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج إلى تأوُّل ، والآخر : أن يكون الشبه مُحصّلاً بضرب من التأوّل»[2] .

فالقسم الأول : «تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو أن يشبه الشئ إذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر ، ونحو ذلك ، وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره ، وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع»[3].

وهذا النوع أسماه (القزويني الظاهر) من المجمل الذي يفهمه كل أحد[4].

ومرد هذا النوع ، هو وضوح قصد المتكلم (المُشبه) فلم يستدع تأوّلاً من المتلقي «فالشبه في هذا كله بَيِّن لا يجري فيه تأوُّل ، ولا يفتقر إليه في تحصيله ، وأيُّ تأوُّل يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة ، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ ، وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجال»[5].

---

(١) التلخيص : ٢٤١ .

(٢) أسرار البلاغة : ٩٠ ، يفرق بين التشبيه والتمثيل فالتشبيه عام ، والتمثيل خاص : ٩٥ .

(٣) المصدر نفسه : ٩٠-٩١ .

(٤) التلخيص : ٢٧٤-٢٧٥ .

(٥) أسرار البلاغة : ٩٢ .

ويمكن التمثيل له بقول الخَطيم المحرزي[1] : [الطويل]

وَجَارَاتِهَا اللاتِي كَأَنَّ عُيُونَهَا عُيُونُ المَهَا يُفْقِهْنَنَا بِالحَوَاجِبِ

المشبه (عيون الجارات) والمشبه به (عيون المها) ، ووجه الشبه والقصد هو جمالها ووسعها ؛ وهو قصد معلوم عند ذكر عيون المها .

القسم الآخر : « أن يكون الشبه يحصل بضرب من التأوّل .

وهذا النوع هو من التشبيه المجمل الخفي عند (القزويني) الذي لا يدركه إلا الخاصة كقول بعضهم» هم كالحلقة المفرغة لا يدُرى أين طرفاها ؛ أي : هم متناسبون في الشرف كما أنّها متناسبة الأجزاء في الصورة»[2].

والمجمل في التشبيه ما حذف منه وجه الشبه[3].

تقسيم التشبيه المجمل مراعاة للقصد :

قسم (عبد القاهر) هذا النوع من التشبيه إلى قسمين بحسب تفاوت طريقة التأويل لإظهار وجه الشبه (المقصود) وهما :

أ- ما كان قريب المأخذ (ظاهر القصد) .

وهو « ردّ شيء إلى شيء بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلاً في التأوُّل وأقوى حالاً في الحاجة إليه»[4].

---

(١) شعراء أمويون : ٢٧٠/١ ، وقد ضبط الدكتور محمد نبيل طريفي (يُفقهننا) بفتح الياء والقاف ديوان اللصوص : ٢٣٤/١ ، والأحسن بالضم والكسر ؛ لأن الكلام عن عيونهن فهن من يُفهِمن غيرهن . وهكذا ضبطها عبد العزيز الميمني (رحمه الله) ومعناها عنده (الظاهر يُفقِهنَنَا يُفهمننا ، أي إن إشارة الحواجب تنوب عن الكلام « سمط اللآلي (ذيل اللآلي) ٤٠/٣ ، والمها : بقر الوحش ، لسان العرب : (مها) ٢٩٧/١٥ .

(٢) التلخيص : ٢٧٦-٢٧٦ .

(٣) يُنظَر : المصدر نفسه : ٢٧٤-٢٧٥ .

(٤) أسرار البلاغة : ٩٣ .

ومثاله عنده في صفة الكلام «ألفاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلاوة ، يريدون أن اللفظ لا يستغلِق ، ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه ، فصارت لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق والنسيم الذي يسري في البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويُهدي إلى القلب روحا ويُوجد في الصدر انشراحا ويفيد النفس نشاطًا ، وكالعسل الذي يَلَذُّ طعمه وتَهِشُّ النفس له ويميل الطبع إليه ويحب وروده عليه فهذا كله تأوُّل»[1].

مثاله ما جاء في قول جحدر العكلي : [2] [الطويل]

عَلَى قَدَمٍ مَكْنُوْنَةِ اللَّوْنِ رَخْصَةٍ وَكَعْبٍ كَذِفْرَى جَوْذَرِ الرَّمْلِ أَدْرَمَا

فـ(ذفرى) البعير أصل أذنه[3]، وهي في البيت للجؤذر ، ولد البقرة الوحشية[4] ، وأدرم ؛ أي : «كعب أدرم لا حجم له لغيبوبته في اللحم»[5] . هذا التشبيه هو في امتلاء ساق المرأة ومشابهته لذفري ولدي البقرة الوحشية الذي امتلأ جسمه لحمًا حتى بلغ أصلى أذنيه فلا يُرى منه ذفراه كما لا يرى منها كعبها لغيبوبته في اللحم .

فالقصد هو أنَّها منعمة في رزقها ، ولاشك أن المقصود (وجه الشبه) يحتاج إلى بعض تأوّل في اظهاره ؛ لأنَّه قد يحمل على غير هذا المعنى[6].

---

(١) أسرار البلاغة : ٩٣

(٢) شعراء أمويون : ١٨١/١ . رخص : الرَّخْصُ : الناعم من كل شيء . ومن المرأة بشرتها ورقتها ، ورخَاصةُ أناملها : لينها . العين : (رخص) ١٠٨/٢ .

(٣) اللسان : (ذفر) ٣٠٧/٤ فيه : وهي مؤنثة فلا تنون ومن العرب من يصرفها ويجعلون الألف فيها أصلية .

(٤) الصحاح : (جأذر) ٦١٠/٢ ولسان العرب : (جذر) ١٢٤/٤ .

(٥) أساس البلاغة : (درم) ٢٨٥/١ .

(٦) ذهب الدكتور محمد نبيل طريفي إلى أن الشاعر «شبه كعبها بلينه ونعومته بأصل إذن جؤذر رمل صغير من أولاد البقر الوحشي» ديوان اللصوص : ١٧٠/١ ، هامش رقم (٢٢) وما أثبتّه هو ما تؤيده اللغة فأدرم الكعب الغائب في اللحم والدكتور فسره بالقصر ، ومنه جاء تأويله .

وفيه أيضًا يقول (الخطيم المحرزي)[1] : [الطويل]

خَلِيْلِي الفَتَى العُكْلِيِّ لَمْ أرَ مِثْلَهُ تَحَلَّبُ كَفَّاهُ النَّدَى شَائِعُ القِدْرِ

كَأَنَّ سُهَيْلاً نَارُهُ حِيْنَ أُوْقِدَتْ بِعَلْيَاءَ لاَ تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ يَسْرِي

وهذا التشبيه مبالغة في مدح صاحبه ، فهو في كرمه ومنزلته المعروفة ، فصارت ناره التي يوقدها في مكان مرتفع للضيوف والمسافرين دليلاً على كرمه . فهو كسهيل دليل لهم في متاهات الصحراء والليل .

ب ـ ما كان بعيد المأخذ (غير ظاهر القصد)

وهو لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة[2] ، و« فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع »[3] ، ومثال هذا النوع عنده قول كعب الأشقري موفد المهلب إلى الحجاج في جوابه عن بني المهلب « كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها »[4] ، فهم في تناسبهم في الشرف والنسب كالحلقة في تناسب أجزائها[5] .

يقول السمهري العكلي[6] : [الطويل]

تَرَى البَابَ لا تَسْتَطِيْعُ شَيْئًا وَرَاءَهُ كَأَنَّا قُنِيٌّ أَسْلَمَتْهَا كُعُوبُهَا

---

(١) شعراء أمويون : ٢٥٦/١-٢٥٧ . وتَحَلَّبَ العَرَقُ وانحَلَبَ : سَالَ . وتَحَلَّبَ بَدَنُه عَرَقًا : سالَ عَرَقُه . لسان العرب : (حلب) ٣٣١/١ . وشاعَ الخبَرُ في النَّاسِ يَشِيعُ شَيْعًا وشَيَعانا ومَشاعا وشُيُوعةً ، فهو شائِعٌ : انْتَشَرَ وافترَقَ وذاعَ وظهَر . لسان العرب : (شاع) ١٩١/٨ . فشائع القِدر كناية عن كرمه .

(٢) أسرار البلاغة : ٩٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٩٤ .

(٤) المصدر نفسه : ٩٤ .

(٥) التلخيص : ٢٧٥-٢٧٦ .

(٦) مجموعة المعاني : ٦٤٢/٢ ، ديوان اللصوص : ٢٧١/١ ، وشعراء أمويون : ١٤١/١ وفيه : (ترى الباب لا تستطيع) .

الكعوب جمع كعب : «عقدة ما بين الأنبوبين من القصب والقنا ، وقيل هو أنبوب ما بين كل عقدتين ، وقيل : الكعب هو طرف الأنبوب الناشز وجمعه كعوب وكعاب»[1]

يلاحظ أن للكعب ثلاثة معان متقاربة ؛ فالأول العقدة بين الأنبوبين ، والثاني هو الأنبوب بين العقدتين ، والثالث هو طرف الأنبوب الناشز ، ولعله قصد بالطرف الذي لا يليه شيء[2]؛ أي : نهاية القناة أو القصبة وقد يكون عين الأول ؛ لأنَّ العقدة هي الناشزة عن الأنبوب ومن دلالة الثالث أن الطرف الناشز (العقدة) في الأنبوب ، يكون المعنى الثاني هو لفظ شامل للأنبوب والعقدة . والأول أرجح فيما يبدو لي في هذا البيت ، ولا سيما أنَّ الكعب يربط بين الأنبوبتين وفيه قوتهما ، وهو المعتمد عليه في الرمح ، وهذا ملتمس في قوله (أسلمتها) ، وكان المرجو منها أن تكون قوية يعتمد عليها .

والشاهد في البيت أنَّه شبه نفسه وأصحابه ، وهم في السجن عاجزون منكسرون أمام من وراء باب السجن وهم الحراس فهم بهذا العجز والانكسار وإن كانوا فرساناً أشداء في حريتهم خارج السجن كالقني التي هي للقتل والصيد غير أن كعوبها تخلت عنها .

يلاحظ أن هذا الوجه من التشبيه (المقصود) يحتاج إلى تحديد دقيق لمعاني اللغة ومناسبة كل لفظ لسياقها ، فلا بُدَّ فيه من تأوُّل لاستظهار وجه الشبه .

---

(١) اللسان : (كعب) ١/٧١٨ .

(٢) يُنظَر : الصحاح : (كعب) ١/٢١٣ .